الدراسات العليا المعنى والوظيفة

أ. د . عبد علي الخفاف*

الدراسات العليا ... ماذا تعني ؟

جميعنا يعرف دور ووظيفة السلم التربوي في التكوين ، فلاشك ان هذا السلم جاء وليداً لجهود العلماء في مجال التربية وعلم النفس على مدى عقود طويلة من الزمن .

رياض الاطفال مرحلة مهمة لتربية الاطفال تربية اجتماعية ولتعويدهم على الضبط الزمني وعلى السلوك الذي نقل فيه العفوية .

اما المدرسة الابتدائية فهي نقلة تكوينية مهمة ، تهدف الى محو الامية الابجدية والى تعلم مبادى المعرفة بصورة مباشرة ، لاسيما تعلم مفردات المحيط الجغرافي والبيئة .

والمدرسة المتوسطة تمثل مرحلة تعليم للمبادئ السابقة ولكن بتفسير مبسط يدخل عقل التلاميذ الى عقل السبب والنتيجة ، وفي الاعدادية ينتقل الى اطار التخصص الواسع : العلمي والادبي والمهني – زراعة وصناعة وتجارة واعمال وغيرها من مدارس التعليم المهني .

وبصدد توزيع الطلبة على فرعين هما العلمي والادبي ، فأننا لنا راي في ذلك ، فنحن ندعو الى الغاء هذا التوزيع ، وذلك لان الطلبة الاذكياء سوف يتوجهون جميعهم الى الفرع العلمي وبالتالي يدخلون كليات المجموعة الطبية والعلوم والزراعة وغيرها حسب مستويات معدلات تخرجهم ،

ويتوجه الاخرون الى الفرع الادبي ليدخلوا فيما بعد الى كليات الآداب والادارة والاقتصاد والقانون والعلوم السياسية وكليات الدراسات الاسلامية .

كلا ... وهنا نسال هل ان الدراسات الانسانية ، عموما ، لا تحتاج الى مستوى عال من الذكاء ؟ انها تحتاج الى مستوى عال من الذكاء ... بل لعلها هي الاحوج من غيرها الى هذا المستوى العالي ، وذلك بفعل كونها علوم تعتمد اساسا على العقل ، فلا ادوات تعيين على متابعتها تساعد العقل ، كما هو

* استاذ دكتور وعميد كلية الآداب جامعة الكوفة

المكرسكوب والتلسكوب ومختبرات الكيمياء والفيزياء والبايولوجيا ، فلاشك ان ادوات المختبرات هذه كثيرا ما ساعدت العقل للوصول الى نتائج المعرفة العلمية .

ثانيا بفعل كونها علوم صعبة ، فالإنسانيات سهلة عندما تكون ثقافة ، الا انها صعبة عندما تكون علما ، وعندما يحاول الباحث فيها ان يقدم اسهاما جديدا في حقولها ، انها صعبة في نتاج العلم .

ما احوج الادب والنقد الادبي الى العقول الذكية ... وما احوج الدراسات التاريخية والنقد التاريخي والدراسات الاجتماعية والنقد الاجتماعي ،وكذلك الحال بالنسبة الى الدراسات الاقتصادية والنقد الاقتصادي ، وما احوجها الى العقول الذكية .

هذه علوم صعبة ذات متغيرات عديدة ، يصعب دخول النظرية العلمية لها ، وتصعب اضافة الجديد الى هذه النظرية .

الاعدادية تمثل مرحلة التخصص العام ، كما اشرنا الى ذلك ، وفي الجامعة والتي تمثل الحدود المطلوبة لإلغاء الامية الحضارية ، يتخصص الطالب في تخصص عام ، في الفيزياء او الجغرافية او الكيمياء او التاريخ على سبيل المثال .

جميع المراحل الدراسية التي ذكرناها ، هي مراحل تلقي المعرفة والحصول عليها ، وتشير الدراسات التربوية اليوم الى ضرورة تلقي المعرفة وتلقي التدريب والتأهيل ، فما عادت المدرسة ما قبل الجامعة ، تقدم المعلومات فقط ، لا بل لابد لها من برامج تأهيل وتدريب حتى تولد لدى التلميذ الرغبة في حب العمل واحترام العمل وبالتالي حب الحياة .

من هنا نفهم ماذا تعني الدراسات العليا ... او الدراسات المعمقة ، فالوصف الاول هو وصف الجامعات الانجليزية (البريطانية والامريكية والاسترالية) High Studies .

اما الجامعات الفرنسية والجامعات الناطقة بالفرنسية فتوصفها بانها الدراسات المعمقة Deep Studies ، من ذلك تأتي بوصفها دراسات عليا في مصر والمشرق العربي الذي وقع تحت تأثير الجامعات الانجليزية ، وتأتي بوصفها الدراسات المعمقة في المغرب العربي .

الدراسات العليا او المعمقة هي مرحلة جديدة تماما باعتبارها مرحلة انتاج المعرفة ... ونقصد بالمعرفة هنا هي المعرفة العلمية ، فكما هو معروف كل علم هو معرفة ولكن ليست كل معرفة هي علم

Every science is a knowledge , but not every knowledge is a science .

فإعداد رسالة الماجستير هو بمثابة اعداد منتج للمعرفة واعداد اطروحة الدكتوراه هي بمثابة نتاج معرفة .

نتاج المعرفة هذا اما :

- نتاج معرفة جديدة .
- اكمال معرفة ناقصة .
- تصحيح معرفة كانت غير صحيحة او غير دقيقة .

هذه هي الدراسات العليا تنتج المعرفة العلمية حتى تسهم في تطوير " النظرية العلمية " وحتى تسهم في حل المشكلات التي يطلب الانسان حلها ، بيئية – اقتصادية – اجتماعية .

والبيئية هنا تتعلق بالمحيط الخارجي وببيئة جسم الانسان " داخل الانسان " .

من هذه الوظيفة ندرك ما معنى توصيفنا للدراسات العليا في جامعتنا بأنها متراجعة وبانها ضعيفة وبانها دون المستوى المطلوب ، ويصل بنا الوصف الى " التشكيك بأنها دراسات عليا " !!

فأين هذا الكم الهائل منذ بداية الستينيات ، أي على مدى اكثر من نصف قرن ، من الاسهام في تطور "النظرية العلمية " ؟ واين دورها في حل مشكلات الارض والناس ؟

لا نرغب ان نعمم بشكل يائس ، الا اننا نصف واقع الدراسات العليا كاتجاه عام ... فتتصف بالضعف ، وهذا الضعف لا يعود الى الطلبة ولا الى الأساتذة ، فمعروف لنا ان طلبة البعثات العراقيين هم المتفوقون على زملائهم ، حتى من اهل البلاد التي يدرسون فيها ، كما ان الاساتذة ، عندما هاجر البعض منهم ، حقق الكثير من الانجازات العلمية في تخصص في الجامعات الدولية .

فالسبب اذن هو في عدم القدرة على خلق البيئة العلمية . فنتاج العلم " صناعة " والصناعة تحتاج الى مقومات والى مستلزمات ، تتعلق بالبنى التحتية وتتعلق بالأليات واساليب التعامل .

وهنا نشير الى ان النتاج العلمي لازال محصورا في اوروبا وامريكا الشمالية (السكسونية : كندا والولايات المتحدة الامريكية) واستراليا ونيوزلنده ، ومنذ سنوات قريبة دخلت اليابان ومن بعدها الصين ودول النمو السبع الاسيوية والبرازيل والارجنتين ، ميدان النظرية العلمية . لأول مرة يسمع المنظرون الغربيون في علم الاجتماع الى تنظيرات اجتماعية جديدة صادرة في خارج الجامعات الغربية ، من البرازيل على وجه التحديد .

الانسانيات او العلوم الانسانية Humanities or Human sciences هي الاصعب في الخلق المعرفي ، وفي النتاج العلمي ، وهذا يقترن بجملة المتغيرات الداخلة في الموضوع الواحد الى جانب ما اشرنا اليه وهو ان العقل يستعين بالكثير من الادوات في البحث في العلوم الصرفة والعلوم التطبيقية التي تعد نتاج للعلوم الصرفة ، مثل العلوم الهندسية والعلوم الجيولوجية والفضائية والزراعة والطبية وغيرها.

منذ مطلع النصف الثاني من القرن الماضي بدأت بعض العلوم الانسانية تبحث عن ادوات تعينها على الوصول الى خصائص العلم ، ونقصد بذلك " الموضوعية " Objectivity فإشكالية العلوم الانسانية هي الموضوعية ، فأدرك الباحثون في هذه العلوم ان الاحصاء من بين الادوات التي تقود نتائجها الى الموضوعية ، وبذلك دخل الاحصاء الجغرافية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

والاقتصاد والسياسة وحتى موضوعات اللغة والادب ، طبعا الى جانب اعتماده من قبل الباحثين في مختلف العلوم الاخرى .

لاشك ان الرقم يصف الحال بشكل دقيق ، والعلم عموما يبدا بالوصف ، ونشير هنا الى الفرق ما بين توصيف المناخ ، على سبيل المثال ، انه حار او بارد وبارد جدا ، من توصيفه بان درجة الحرارة ٥٥ م° او ٨ م° او انها -٥ م° . فهذه نقله كبيرة في التوصيف العلمي .

وثمة فرق بين ان نصف الضغط البشري على الارض في العراق ، مثلا ، بان الكثافة العامة للسكان هي ٥٤ نسمة / كم٢ وبين الكثافة في المنطقة المأهولة Ecomene البالغة ١٥٠٠ نسمة / كم٢ . وذلك بعدما طرحنا ٦٠ % من مساحة العراق وهي المساحة التي تمتد عليها الهضبة الغربية الصحراوية .

ويعجز الرقم المطلق احيانا من توصيف الحالة فعلى سبيل المثال ، نشير الى ان عدد اللاجئين من العراق اليوم هو ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة ، هذا المرقم المطلق ميت لا قيمة له بينما عندما نشير الى ان نسبة الامية في العراق هي ١٦ % ونفارق هذه النسبة مع دول الجوار حيث هبطت فيها النسبة الى ما دون ٥ % عند ذلك ندرك مدى التراجع الذي اصاب العراق ؟ !

هكذا فان النسبة المئوية اسلوب علمي ، وان المقارنة هي الاخرى اسلوب علمي يوصف الحالة المدروسة.

المعدلات والمتوسطات اساليب احصائية تساعد الباحثين على مهمة التوصيف العلمي . وكذلك فان المنحنيات والاشرطة هي اساليب بسيطة الا انها ذات قيمة علمية كبيرة فهي تحدد الاتجاه العام للظاهرة المدروسة ، فمثلا منحني نمو سكان العراق ما بين تعدادي ١٩٤٧ – ١٩٩٧ يرسم لنا الاتجاه العام

لحركة زيادة السكان ويساعدنا على التنبؤ السكاني لعام ٢٠١٧ بصورة تقترب كثيرا من الواقع ، كذلك التكرارات ، واليوم ثمة برامج احصائية متقدمة تفيد طلبة الانسانيات والعلوم كافة تعينهم على وصف الحالة المدروسة فنظام Spss يمثل حقيبة احصائية لدراسة ومعالجة الظواهر الاجتماعية وهي ظواهر ذات متغيرات عديدة تتعدى الاحاد احيانا .

لا اظن ان العلوم الانسانية بحاجة الى ان نبرهن على اهميتها وعلى الحاجة اليها . وبهذا الصدد نشير الى تزايد الحاجة اليها في الوقت الراهن ، فقد عملت المعرفة الطبية وتكنلوجيا الطب والصحة العامة على الحد من اسباب الوفيات على مدى سنوات القرن العشرين وبذلك انخفض المعدل السنوي للوفيات ، في الوقت الذي استمر فيه المعدل السنوي للولادات مرتفعا ، وبذلك طال متوسط عمر الانسان في العراق من ٤٠ عاما الى ٥٠ ــ ٦٠ عاما وهو اليوم بحدود ٦٨ عاما .

ومن هذا التغيير حصل ان زاد عدد السكان في العراق بصورة مطردة من حوالي ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٧ الى ١٦٠٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٧ ، ويقدر اليوم بحوالي ٣٠٠٠٠٠٠٠ نسمة .

العراق بدا يتحول الى بلد مزدحم السكان Over population فبدأ يحتاج الى تأسيس ثقافة اجتماعية تهدف الى ضبط النسل وتخطيط الاسرة وهذه المهمة الصعبة هي من مهمات ووظائف علم الاجتماع Sociology . هل يستطيع علم الاجتماع وهل تستطيع البحوث الاجتماعية توليد القناعة بموضوع تخطيط الاسرة ، ام لا تستطيع ويستمر البلد باتجاه هذه القنبلة الديموغرافية ؟!

ولا بد من الاشارة الى صعوبة العلوم الانسانية والى صعوبة البحث في المجال البشري ، فلا اجهزة وادوات تعين للباحث كما هو الحال في العلوم الصرفة وما يتفرع عنها من العلوم التطبيقية . كما ان العلوم الانسانية تحتاج الى الموضوعية Objectivity ، والوصول الى الموضوعية تستلزم تكوينا علميا سليما وواقعياً ، من ذلك لا نزال بعيدين عن امكانية الاسهام في النظرية العلمية .

لأجل تطوير واقع الدراسات العليا نحتاج الى خطوات مهمة وهي باختصار :

١ ــ اقناع الدولة ان الاقسام العلمية هي بمثابة مصانع لإنتاج البحوث ، وسيبقى الحال هذا لمدة ٢٥ عاما القادمة في اقل الاحتمالات ، بعدها سوف يظهر دور مراكز البحث العلمي في المصانع والمزارع ووحدات الانتاج المتنوعة الاخرى .ولا بد ان تقنع الدولة ان نتاج المعرفة صناعة ومواقعها اليوم هي الاقسام العلمية في الجامعات .

٢ – تبدأ وزارة التعليم العالي بتأسيس ثقافة أن القسم العلمي هو الجامعة فلابد له من الاستقلال وبناء الشخصية العلمية والادارية ، وان جميع الادارات ، رئاسة الجامعة وعمادة الكلية هي في خدمة العمل العلمي أي في خدمة القسم العلمي .

٣ – الاهتمام بالنسبة التحضيرية ، فلا بد ان تتميز " بالكم المعرفي الكبير " .

٤ – اعادة نظام الشرف في الدراسة الجامعية الاولية ، فخريجو قسم الشرف هم المؤهلون للدراسات العليا قبل غيرهم .

٥ – اعادة نظام المعيد ، فلا يتم تعيين الخريجين في القسم العلمي سوى الاول والثاني والثالث فقط ، يمارسون العمل في القسم لمدة لا تقل عن سنه تحت مظلة استاذ او استاذ مساعد ، ومن ثم يتقدمون الى الدراسات العليا او الى البعثات في الخارج .

٦ – آليات القبول وما يتعلق بها من تفصيلات لا تتم في رئاسة الجامعة والعمادة وتنزل الى القسم باعتبارها اوامر ، بل تتم في القسم ويتم اشعار العمادة ورئاسة الجامعة بذلك .

٧ – يعلن كل قسم شروطه الخاصة ، ويعلن الموضوعات التي يفتح بها الدراسات العليا ، وهي سوف تختلف من عام الى اخر حسب توافر الامكانات لا سيما الملاك المؤهل للدراسات العليا .

اخيرا لا تقدم للجامعات العراقية بالمباني الشاهقة ومباريات رؤساء الجامعات بما انجزوه من بناء الآجر والحجر والبوابات ، هذا ليس ميدان السباق ، بل ان السباق في "خلق التقاليد " وترصين الاعراف الجامعية وتوفر البيئة المناسبة لصناعة المعرفة وتأهيل الطلبة بالمعرفة بشكل صحيح وبمستوى مقبول ، فالمعروف ان الكثير من الجامعات العالمية التي اسهمت في النظرية العلمية هي بمباني متواضعة .

ارجو ان تخصص حصصا كبيرة من اعمار التعليم العالي باتجاه الزملاء الاساتذة ومنها الزيارات العلمية والمشاركات في المؤتمرات خارج العراق وتقديم الحوافز المشجعة بمختلف السبل .